المحور:التعليم والعلماء.

المحاضرة– مكانة العلماء و وظائفهم، وعلاقتهم بالحكام:

أولا– مكانة العلماء:

كان الباشاوات في الجزائر هم الذين يعينون العلماء في وظائفهم، بينما لم يكن للعلماء دخل في تعيين الباشاوات، فقد كان الأوجاق هم الذين يقررون مصير الباشا، فإذا رضوا بقي في الحكم، وإذا غضبوا وقعت الثورة وسقط الباشا مضرجا في دمائه، أو مدلى من حبل المشنقة، وفي بعض الأحيان كان الأوجاق يأخذون في الاعتبار سخط العلماء على الباشا، ولكن ذلك لم يكن أمرا ضروريا للإطاحة به، إذ كان يكفي تجمع عدد من الجنود عند القصر ودخول طليعة منهم للقبض على الباشا وإعدامه [1]، وكان دور العلماء في هذه الحالات سلبيا، فهم ينتظرون انجلاء غبار الثورة، لكي يباركوا للباشا الجديد ويتقدما إليه بالبيعة والتهنئة، وعروض الولاء، وقد وقف بعض العلماء أحيانا مواقف سياسية من بعض الولاة، فكان نصيبهم الإعدام، كما حدث للمفتي أحمد قدورة مع الباشا محمد بكداش، هذا الأخير وبمجرد اعتلائه الحكم قام باغتيال الشيخ قدورة، وذلك سنة 1118هـ[2].

والعلماء فئة احتكرت مجالات معينة في المجتمع، وهي الافتاء والقضاء والتعليم والإمامة والخطابة، ورغم تعدد هذه المجالات، فإنها كانت ضيقة ومحددة، ولذلك كثر التنافس عليها بينهم عليه، وكان هذا التنافس بدوره سببا في إضعاف دورهم

---

[1] سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج.1، ص.389.

[2] محمد بن الأمير عبد القادر، **تحفة الزائر في مسثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر**، المطبعة التجارية عرزوزي وجاويش، الإسكندرية(مصر)، 1903م، ج.1، ص.70.

السياسي، لأن الباشاوات والبايات كانوا يضربون هذا بذاك، ويغلبون فريقا على فريق وعائلة على عائلة عند الضرورة[1].

كان العثمانيون في أول الأمر يجلبون معهم علماءهم إما لعدم ثقتهم في علماء الجزائر، وإما للقيام بشؤون المذهب الحنفي، الذي كانوا يتبعونه، كما أنهم ولوا الوظائف الدينية وكلفوا بالمهمات الدبلوماسية علماء من مختلف الأقطار الإسلامية، ولم يعتمدوا في ذلك على علماء الجزائر، على الأقل بداية عهدهم، ومهما كان الأمر، فإن المدرسة الجزائرية كانت غير كافية لسد جميع الفراغات في الوظائف المفتوحة أمام العلماء، ولعل عدم توحد المدرسة الجزائرية قد أضعف أيضا من فئة العلماء، ذلك أن أصول تعليمهم وطموحاتهم كانت مختلفة في النهاية[2].

كانت المراسلات بين العلماء من أهم وسائل الاتصال بينهم، وفي المراسلات تبادل للمعلومات وحفظ للعلائق الودية و وضوح للمسائل العلمية الغامضة، وكان بعض العلماء يتبادلون الألغاز، فقد ذكر عبد الكريم الفكون(الحفيد) أنه كان يتراسل مع الشيخ سعيد قدورة بالعاصمة [3]، كما تراسل مع أحمد المقري عندما كان هذا الأخير في القاهرة، وكان علماء قسنطينة وعلماء عنابة يتبادلون المراسلات أيضا، ومن ذلك مراسلات بركات بن باديس مع تلميذه أحمد البوني، وكانت بين سعيد المقري في تلمسان وعلماء المغرب مراسلات أثبتها ابن أخيه أحمد المقري في (روض الآس)، وغير ذلك[4].

---

[1] سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج.1، ص.389.

[2] نفسه، ج.1، ص.391.

[3] ينظر نص هذه المراسلة في : الفكون، **منشور الهداية**، ص ص.223-224.

[4] سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج.1، ص ص.401-402.

ثانيا –علاقة العلماء بالحكام:

يمكننا أن نقسم العلاقة بين العلماء والسلطة العثمانية إلى علاقات طيبة وعلاقات سيئة، فقد كان الحاكم العثماني ملتزما بمبدأ عريق عنده، وهو أنه رجل محارب وسياسي وأن حروبه وسياسته قائمة على الدفاع عن الدين والجهاد في سبيله، فهو يعترف أنه من رجال السيف وأنه لا شأن له بالطرف الآخر من القضية، وهو الدين والعلم، فهو ليس من رجال الدين كما أنه لا يريد منهم أن يتدخلوا في حروبه وسياسته، وهو بالمقابل لا يتدخل في شؤونهم الدينية والقلمية، هذه هي الحدود بين الطرفين، فهي حدود قائمة على الاحترام المتبادل واعتراف كل طرف بسيادة الآخر في مكانه[1].

إن أكبر عمل يستطيع أن يقوم به العالم نحو الحاكم هو نصحه وتوضيح ما هو ديني وما هو غير ديني، وحتى هذا النصح كان يغلف في قالب لا يحس منه الحاكم أن العالم يتدخل في شؤونه، وكان بعض العلماء قد وجدوا من التحريض على قتال الاسبان في وهران مجالا حرا للتعبير عما في أنفسهم نحو السلطة ونحو الدين ما دام الباشاوات أنفسهم عازمين على حرب الاسبان وعلى الجهاد بصفة عامة، وهذا الموقف لا يسمى تدخلا من العلماء، وإنما يعتبر تأييدا لما كان العثمانيون يقومون به وتعبيرا للرأي العام ضد الاسبان، ومن أمثلى ذلك تحريض الشاعر محمد بن آفوجيل الباشا حسين خوجة الشريف على قتال الاسبان بوهران، ثم انتقل من التحريض على القتال إلى الحديث عن حالة العلماء في الجزائر، فنصح الباشا بأن يشاورهم في الأمر، لأنهم ورثة الأنبياء، وفي الجزائر عدد كبير منهم اشتهر بالتفسير والحديث

[1] سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج.1، ص ص.409–410.

والفقه والشعر، ولكنهم مع ذلك لا يجدون مساعدة، لأن الباشاوات قد أهملوهم فكانت النتيجة أن ضاع العلماء وجاعوا[1].

وقد اشتهر بعض الباشاوات بتقريبهم للعلماء ومراعاتهم، إما حبا في الدين والعلم وإما طمعا في تأييدهم وإما حبا في المدح والثناء، وكان عدد هؤلاء الباشاوات قليلا لأننا عرفنا أن طبع الحكام العثمانيين غير ثقافي وأنهم لا يتقربون من العلماء إلا عند الحاجة القصوى، ومن هؤلاء القلة يوسف باشا الذي تولى الحكم عدة مرات خلال الخمسينات من القرن الحادي عشر(17م)، فقد تبادل هذا الباشا الرسائل مع بعض علماء بونة مثل محمد ساسي البوني [2]، هذا الأخير وبطلب من يوسف باشا تدخل لدى الأهالي لتوقيف ثورة ابن صخري في الشرق الجزائري ضد الحكم العثماني، وقد طلب البوني من الباشا العفو عن الأهالي، فكان له ذلك [3]، وهناك رسائل بين البوني والباشا، مؤرخة بسنتي: 1050هـ/1640م، و 1051هـ/ 1641م، ومما جاء في إحداها ما يلي: ‹‹... إلى سيادة الفقيه الصالح الناصح الولي العارف بالله... أبي عبد الله سيدي محمد ساسي قوّى الله مدده، وأكثر حزبه وعدده...››[4].

كما وقف الشيخ عبد الكريم الفكون(الحفيد) إلى جانب يوسف باشا في ثورة ابن صخري السالفة الذكر، ولذلك كتب الباشا إلى الشيخ الفكون جوابا جاء فيه: ‹‹...إلى مقام العالم المشهور الخير الصبور...سيدي الشيخ بن الفكون...فقد بلغنا أنك سرت إلى ناس قسنطينة بالتدبير المفيد، والرأي الصائب الرشيد،فكان في ذلك حقن دمائهم،

---

[1] سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج.1، ص ص.410-411.

[2] نفسه، ج.1، ص.411.

[3] أبو القاسم سعد الله، **شيخ الإسلام: عبد الكريم الفكون داعية السلفية** ، ط.1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986م، ص ص.34-35.

[4] أبو القاسم سعد الله، **تجارب في الأدب والرحلة** ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983م، ص ص.54-56.

وزوال الخلاف والهرج بينهم فجزاك الله بأحسن الجزاء وما أنت إلا حبيبنا وصديقنا من كونك تسعى في الخير والصلاح، وترشد العباد للفلاح والنجاح، ثم نلتمس منكم دعاء الخير في كل خطب، وزمان كل ركب»[1].

وعموما استمرت العلاقة حسنة بين الحكام العثمانيين والعلماء إلى أواخر القرن الثامن عشر ميلادي(12هـ)، بحيث قرّب العثمانيون إليهم رجال الدين من علماء ومرابطين منذ التحاق الجزائر بالدولة العثمانية، وجعلوهم واسطة بينهم وبين السكان، وذلك لارتباط الوجود العثماني في الجزائر بالجهاد ضد الغزوات الصليبية الأوروبية على السواحل الجزائرية، ولهذا كان جل العلماء ورجال الدين المرابطين يؤيدون العثمانيين، كما شارك العلماء في الجهاد وخاضوا المعارك، وقد حفظت لنا الكثير من أخبار العلماء، الذين شاركوا في الفتح الأول والثاني لوهران[2].

لكن بعد فتح وهران، أي في أواخر القرن الثامن عشر، وفي بداية القرن التاسع عشر(أواخر العهد العثماني)، بدأت العلاقة بين العلماء والسلطة الحاكمة في الجزائر تتغير نحو الأسوأ، ومن أبرز الأسباب التي أدت إلى ذلك هو تصفية الاحتلال الإسباني من الجزائر، فالجهاد ضد الأوربيين عموما، وضد الإسبان خصوصا كان عاملا رئيسيا في توطيد العلاقة بين السلطة والعلماء، ومنذ الاسترجاع النهائي لوهران سنة 1205هـ/ 1790م، لم يعد هناك كبير حاجة إلى الجهاد، وبذلك ارتفعت في أواخر العهد العثماني أهم الأسباب الداعية للتحالف بين العلماء والعثمانيين،سيما

---

[1] محمد الصالح بن العنتري، **فريد منسية في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها، أو تاريخ قسنطينة**، تق وتع: يحيى بوعزيز، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009م، ص.46.

[2] لزعم، **البيوتات**، ص ص. 471-472، 474.

مع إهمال العثمانيين لأغلب مجالات الحياة، والتركيز على الجوانب السياسية والعسكرية، وحفظ الأمن داخليا وخارجيا[1].

ومن أهم أسباب القطيعة أيضا بين العلماء والسلطة هو لجوء هذه الأخيرة إلى سياسة ضريبية أقل ما يقال عنها أنها مجحفة أنهكت السكان، وقد تزامن تغير سياسة الحكام المالية، مع تخلص الجزائر من الإسبان بحيث كان مردود الغزو البحري يمثل نصف مداخيل الخزينة الجزائرية، من غنائم ورسوم مفروضة على الدول الأوروبية من أجل حق ممارسة الملاحة في البحر الأبيض المتوسط، ولما بدأ مردود البحرية في التقلص نتيجة تقهقر البحرية نفسها في أواخر القرن 18م، تناقصت مداخيل الخزينة، فتوجه الحكام نحو الداخل لتوفير احتياجاتهم المالية، وضاعفوا الضرائب، وأخضعوا القبائل الخارجة عن سلطة الدولة بالقوة [2]، مما أدى إلى سخط الكثير من العلماء ومعارضتهم للسلطة العثمانية.

---

[1] لزعم، **البيوتات**، ص.480.

[2] نفسه، ص480.